الجاحـظ و آراؤه النّقديـة حول اللّفظ و المعنـى

أ/عبد الكـريـم محمـودي
المدرسـة العليا للأسـاتـذة ، بوزريعة.الجـزائـر

ملخص :

يتناول هذا البحث نقد الجاحظ للشّعر ومذهبه و أخلاقه و رأيّه في نظريّة النّظم، ويتطرق البحث أيضاً إلى رأيّه في تأسيسه لعلم البلاغة العربيّة، وتأثير الجاحظ فيمن جاء بعده من النّقاد (قدماء ومعاصرون) فيما يتّصل بنظريته حول "اللّفظ والمعنى". وتناول البحث كذلك نظريّة الجاحظ حول الشّعر وعلاقته بالمعرفة والبيئة. و أصناف دلالات الألفاظ عنده مع الإشارة أيضا إلى دراسة الجمال في العلاقة بين اللّفظ و المعنى، وكان من نتائج البحث أنّ آراء الجاحظ حول الشّعر لم تتبلّور في نظريّة نقديّة متماسكة ومنتظمة، كما أن موقفه للبديع على ضوء الاعتزال كان له أثره في نقد الشّعر عنده، وفي الأخير تم استنتاج أنّ الجاحظ ناقش مسألة اللّفظ و المعنى و هي دراسة لا زالت كل الدّراسات اللّغويّة و الصّوتيّة المعاصرة في أدبنا العربي و الآداب المعاصرة تهتم بها و تبحث فيها .

Abstract

The Arabs have been practicing poetry criticism from time immemorial. It is indeed a known fact that Jahidh is one of the famous acient critics who wrote on poetry and poets, he, at the end of his study, differentiated between good and bad poetries. It would not be an exaggeration, therefore, if we said that jahidh wrote his books “Al-Bayan wa tabyeen” and “Kitabul-Hayawan” in order to clear the ambiguity in Arabic poetry with regards to words and meanings, this may account for the reason why some scholars are of opinion that Jahidh wrote the two aforementioned books with the sole aim of criticism. However, it could be deduced that Jahidh authored the two books as his own contribution to Arabic Literature generally and criticism specifically, this made it pertinent for us to put the books into consideration when attempt is been made to carry out critical study of Arabic poetry.

تمهـيد:

لم تعرف الحياة الأدبيّة و العلّميّة عند العرب عهدًا خصبا بالرّجال و الأفكار و مختلف الأمزجة كما عرفت في صدر الدّولة العباسيّة ،فقد كان فيها ضروب شتّى من التّفكير،

وضروب شتّى من البحوث ،و قد كان فيها ولوع بالمعرفة و انصراف إلى العلوم و الفنون في قوّة و إيمان ، فبينما رجال الدّين يبحثون في القرآن و الحديث و الأصول ، وبينما علماء العربيّة يجمعون اللّغة و يدوّنون النّحو و يستنبطون العروض ، إذ بعلماء آخرين ينقبون في آثار الفرس والسّريان و اليونان ، ينقلون منها الى العربيّة الصالح المقبول ، وما انقضى عصر الرّشيد حتى كانت العلوم اللّسانيّة و الشرعيّة قد دوّنت ، وحتى ألّم العرب بكثير من أفكار الأمم الأجنبيّة و طرقها في البحث و التّحليل و هذه الحياة العلّميّة المتشعبة هي الّتي انبتت الجاحظ ،و سُهيل بن هارون و أبا تمام ،وابن الرومي ،وغيرهم من الكتّاب و الشّعراء و هذه الحياة العلّميّة أثرت في النّقد تأثيرا بعيدا لا في ظواهره ولا في أشكاله ،بل في جوهر حقيقته و في الأمزجة الّتي يصدر عنها ، و في الثقافة الّتي ينحدر منها ، فالنّقد الأدبي منذ القرن الثالث يقوم على البلاغة و الثقافة و التّبحر و الفلسفة و المنطق و كل ما دخل في الذهن العربي من المعارف الأجنبيّة فلن تراه سهلا و إنّما هو نقد متشعب النّواحي.(1)

مذهب و أخلاق الجاحظ:

يُعد الجاحظ من الطبقة السّابعة في المعتزلة ، وفي هذا المذهب رُبيّ و عليّه نشأ ، و عنه ناضل و له ألّف وقد خالف أصحابه في مسائل طفيفة فسميّت فرقته الجاحظيّة ، و زعموا أنّه قال أنّ المعرفة طبائع ونُقل عنه أنّه أنكر أصل الإرادة و كونها جنسا من الأعراض فقال: إذا انتهى السّهو عن الفاعل و كان عالما بما يفعله فهو المريد على التّحقيق ، و أمّا الإرادة المتعلقة بفعل الخيّر فهو ميّل النّفس إليّه ،و زاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام ،كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها ، و قال بعدم استحالة الجواهر و أن الأعراض تتبدل و الجواهر لا يجوز أن تفنى ، و مذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصّفات ، وهذا مجمل ما يقال في مذهب أبي عثمان ، أمّا أخلاقه و مزاجه فما كان بالسّوداوي و لا بالعصبي وكان أميّل الى التّفاؤل منه الى التّشاؤم ، يري الدّنيا بعيّن المغتبط المحبور ، لا بعيّن المغيظ المحنق ، يبدو السّرور عليّه إذا خطب و إذا كتب ، و تغمره الغبطة و تعتاده الدّعابة و خفة الرّوح فيه جبلّة يتنادر إلى الطبقات المختلفة يبعث بهذا ، و يولع بذاك لا تفزعه المظاهر ، و لا يتوقف في إيراد النّكتة ، فُطر على الوفاء لأصحابه و الثّبات على ودّهم ، و لا يشفع بمن يعرف و بمن لا يعرف لاعتقاده أنّ الوصاة شهادة ، و صَعُب عليّه أنْ يشهد الزّور.(2)

كان الجاحظ يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد بعيدًا عن الفوضى بعض البعد و يحب النّظام في الجملة إلا أنّه كان لا يدّخر المال الى أيّام العسرة ، و إذا أتاه يُنفقه لا يحسب للغد حسابا كبيرا ، و لذلك كان يعسر أحيانا وتعوزه النّفقة و يلوب على

الناض يرتفق به ، وكان ضنينا على إخوانه و لو أخذا من الأغنياء فأفضل على الفقراء ، ولئن نشأ من بيت وضيع ، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس.(3)

و هو وإنْ لم يؤلّف كتابا خاصّا في مواضيع البلاغة و أبوابها و حتى كتابه البيان و التّبيين الّذي يعتبر أهم كتبه في هذا الباب فقد أخرجه عن كونه كتابا للبيان بكثرة خروجه واستطراده ، و ردوده و أمثلته و قد فرق قواعد البلاغة و آرائه في الجزء الأوّل و الثاني تقريبا، و إذًا فلم يمت الجاحظ إلاّ و نرى علماء البلاغة يتوجّهون الى نقد كتبه و معارضتها و أنّها خاليّة من التّخصص في العلّم الّذي وضعت له فألّف قدامة بن جعفر كتابا في نقد النّثر ردًا على الجاحظ و على كتابه البيان و التّبيين ، و الجاحظ و إن لم يؤلّف كما قلنا كتابا خاصّا في مواضيع البلاغة و لم يقصّره عليها و لكنّه في آرائه المتفرقة في البيان و التّبيين و في الحيوان يُعتبر رئيس هؤلاء البلاغيين، و إذا تساءلنا عن الّذي جاء به الجاحظ من جديد فهذا الّذي تراه متفرقا من آرائه و ردوده ، ويعتبر الجاحظ أنّ جمهور المتكلّمين أسسوا البلاغة واشتقوها اشتقاقًا من علّم الكلام و بالأخصّ من باب البيان الّذي يتكون من اللّفظ و الخط و الإشارة و العقد و ما يسميه في البيان بالنِّصبة.(4)

الجاحظ مؤسس علم البلاغة:

ضُرب المثل بأدب الجاحظ و بيانه و سعة عباراته حتى كان يقال من" دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به "و من الخير لطلاب البلاغة إذا أن يُمَعنوا النّظر بكلام الجاحظ ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته ، و يتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة ، و يتعرفوا ميزانه الدّقيق في فقه اللّغة ، أيّ النّظر في مواقع الألفاظ و أين استعملتها العرب ، و تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة و الابتذال ،و اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى وتشوش عليه.(5)

ويُعتبر الجاحظ مؤسس علّم البلاغة العربيّة ،إذْ توسّع في دراستها و قدّم الكثير من النّشاطات الأدبيّة و الفكريّة ، فجمع ما كان يتّصل بها من آراء و علوم سابقيه و معاصريه ، و شرحها و عمل على تقديم الكثير من الآراء و الأفكار الشّخصيّة الّتي تتمحور حولها ، ولهذا اعتبر بحق واحدا من النّقاد القدماء الكبار ، إذا النّقد العربي القديم كان يقوم أساسا على علوم البلاغة العربيّة و قضاياها.(6)

ومن أهم كتب الجاحظ الّتي عالجت مسائل النّقد و الشّعر و قضايا البيان و البلاغة كتابان هما " البيان والتّبيين " أولا و " الحيوان " ثانيا ، و قد طرح الجاحظ في هذين الكتابين جملة من قضايا النّقد الأدبي و الّتي لازالت حتى اليوم موضع مدارسة من قبل النّقاد ، وهي تتمثل في المسائل التّاليّة : اللّفظ و المعنى ، النّظم ، مطابقة الكلام لمقتضى الحال ،السّرقات الشّعريّة،

فصاحة الكلمة و فصاحة الكلام ، البيان العربي و ما يشتمل عليه من تشبيه و مجاز واستعارة و كناية بالإضافة الى مباحث أخرى أُطلق عليها اسم "البديع" و هي السّجع والازدواج و المذهب الكلامي ، و التّقسيم و الاحتراس ، و الاقتباس و أسلوب الحكيم كذلك كان للجاحظ رأيّه في الشّعر و في نقد النّحاة و الرّواة و في مجمل قضايا النّقد المختلفة و في طليعتها موقفه من الصّراع بين القديم و الحديث.(7)

الكلام و مقتضى الحال:

يذهب الجاحظ مذهبًا جديدا من أجل مطابقة الكلام بمقتضى الحال ، إلى حد يجعله يدعوا إلى اللّحن و مجانبة الإعراب إذا اقتضى المقام ذلك، و قد أكّد هذه المسألة أكثر من مرّة فهو يقول مثلا " و أنا أقول إن الإعراب يفسد نوادر المولّدين، كما أنّ اللّحن يفسد كلام الأعراب ، لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبته تلك الصّورة و ذلك المخرج و تلك اللّغة و تلك العادة فإذا دخلت على هذا الأمر إنّما أضحك بسخفه و بعض كلام العجمية حروف الإعراب و التّحقيق و التّثقيل و حوّلته الى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء و أهل المروءة و النّجابة، انقلب المعنى مع انقلاب لفظه ، و تبدلت صورته."(8)

أمّا في كتابه البيان و التّبيين فهو يقول " و متى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام العرب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها و مخارج ألفاظها فإنّك إنْ غيّرتها بأنْ تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج المولّدين و البلديين ، خرجت من تلك الحكاية و عليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام و ملحة من ملح الحُشوة و الطعام فإيّاك و أنْ تستعمل فيها الإعراب أو تتخيّر لها لفضا حسنا أو تجعل

لها من فيك مخرجا سريّا ، فإنّ ذلك يفسد الامتاع بها ، و يخرجها من صورتها ، ومن الّذي أريدت له ، و يُذهب استطابتهم إيّاها و استملاحهم لها "(9)، و ما من شك أنّ الجاحظ كان يريد من خلال هذه الآراء النّقدية ضرورة مراعاة المطابقة بين الكلام و مواضعه ، فهو يُقّر اللّحن في مواضعه كما يُقّر الفصاحة أو اللّسان الفصيح في مواضعه أيضا.(10)

الشّعــر مصـدر للمعـرفـة:

من الغريب أنّ الجاحظ و هو يُعد أصناف الرّواة و استغلالهم للشّعر في خدمة أهدافهم من نحو و غريب و شاهد و مثل (11)، لم يحسّ أنّه وقع في مثل ما وقعوا فيه فاستغل الشّعر مصدرا لمعارفه العامّة إذا استمد منه تصوره للخطابة و بعض معلوماته عن الحيوان ، بل إنّه جاء بأشعار و شرحها لأنّ شرحها يُعينه على استخراج ما فيها من معرفة علّميّة ، و هو إذا روى الشّعر بمعزل عن الاستشهاد فإنّما يريده للمذاكرة أو للتّرويح عن النّفس كغيره من نقاد عصره ومع ذلك كلّه يتميّز الجاحظ عن جميع الرّواة بل يتميّز الجاحظ عن جميع من ألّموا

بالنّقد في القرن الثالث ، و مرد هذا إلى طبيعته الذّاتيّة و ملكاته و سعة ثقافته و يأسف الدّارس لأنّ الجاحظ لم يفرد للنّقد كتابا خاصّا أو رسائل ، و أنّه أورد ما أورده من نظرات عرضًا في تضاعيف كتبه كالحيوان و البيان و التّبيين ، و يمثل كتابه في نظم " القرآن " حلقة ما تزال مفقودة إذ نتوقع أنْ يكون للجاحظ فيه و به نظرات نافذة في مجال النّقد حسبما تعودنا أن نجد في كتبه الّتي وصلتنا ، لقد كان الجاحظ بما أوتي من علّم و ذكاء و شخصيّة متفردة من خيّر من يحسنون تأسيس النّقد على أصول نظريّة و تطبيقيّة و لكن شغل عنه بشؤون أخرى كثيرة اقتصر في الميدان النّقدي على وقفات قصيرة معدودة تناولها الدّارسون المعاصرون بالنّظر و التّحليل و حاولوا أن يصوّروها من خلالها مدى ما أسهم به في ذلك الميّدان فالعودة إليها في هذا المقام تشبه أنْ تكون تأكيدا لدور الجاحظ في النّقد مع محاولة لربط آرائه بالتّيارات المعاصرة و إبرازها على نحو متكامل قدر المستطاع.(12)

قضية البيان:

شغلت قضية البيان الجاحظ فأفرد لها كتابا خاصّا هو " البيان و التّبيين"عرض فيه آراءه و أفكاره ،كما تحدث عن مسألة البيان العربي في بعض كتبه الأخرى ، و خصوصا كتابه الحيوان ،و إذا أردنا أن نقف على رأيّ الجاحظ في تحديد معنى البيان، كما يمكن استنتاجه من خلال كتاباته ، فإنّنا سوف نقع على عدة معانٍ فمن أوجه معاني البيان أنّه يفيد معنى "الفهم و الإفهام " كما يأتي البيان بمعنى " البرهان" في مكان و بمعنى البلاغة في مكان آخر و ربما أراد به " روعة التّعبير"(13) و قد استشهد على ذلك بقول مالك بن دينار" ربما سمعت الحجّاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق و ما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنّهم يظلمونه و أنّه صادق لبيان و حسن تخلصه بالحجج."(14)

فالجاحظ لم يثبت على تعريف واحد للبيان، غير أنّ أدق و أوضح تعريف للبيان يمكن أن نقع عليه في كتاب البيان و التّبيين، للجاحظ هو من خلال قوله "و البيان اسم جامع لكل شيئ كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السّامع إلى حقيقته ، و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان و من أيّ جنس كان الدّليل. "(15) فعالم المعاني عند الجاحظ أوسع من أن تحيط به الألّفاظ و الأسماء و في ذلك يقول :"ثم اعلم حفظك اللّه أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، و ممتده إلى غير نهاية ، و أسماء المعاني مقصورة و محصّلة و محدودة."(16)

نظرية المعاني المطروحة:

يرى الجاحظ أنّ المعنى موجود في كل مكان ، وما على الأديب إلاّ أنْ يتناوله و يصوغه صياغة متفردة و لم يكن الجاحظ يتصوّر أنّ نظريّته الّتي لم تكن تمثل خطرًا عليه ستصبح

في أيّدي رجال البيان خطرًا على المقاييس النّقديّة و البلاغيّة ، لأنّها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل (18)، و حسبنا أن نقرأ للعسكري الّذي ورث هذه النّظريّة الجاحظيّة يقول " و من الدّليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللّفظ أن الخطب الرّائعة و الأشعار الرّائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط ،لأنّ الرّدئ من الألفاظ يقوم مقام الجيّد منها في الإفهام ،و إنّما يدّل حسن الكلام و إحكام صنعته و رونق ألفاظه و جودة مطالعه و حسن مقاطعه و بديع مبادیه و غريب مبانيه على فضل قائله و فهم منشئه و أكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني ، و توخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ، و لهذا تأنق الكاتب في الرّسالة و الخطيب و الشّاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها و يغلون في ترتيبها ليدّلوا على براعتهم و حذقهم بصّناعتهم و لو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدًا كثيرًا و أسقطوا عن أنفسهم تعبًا طويلا."(19)

ثم وقف الجاحظ من نظريّته في الشكل موفقين أخريين أحدهما يؤيّدها و الثاني ينقضها فأمّا الأوّل فهو إصراره على أنّ الشّعر لا يُتّرجم "و متى حُوّل تقطع نظمه و بطل وزنه و ذهب حسنه و سقط موضع التّعجب "(20) و استعصاؤه على التّرجمة إنّما هو سر من أسرار الشّكل ، و أمّا الثاني فهو قوله إنّ هناك معاني لا يمكن أنْ تسرق كوصف عنترة للذباب "فإنّه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشّعراء فلم يعرض له أحد منهم ، و لقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى و من اضطرابه فيه أنْ صار دليلا على سوء طبعه في الشّعر قال عنترة:

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغني وحده هزجا كفعل الشارب المترنم

غردا يحكّ ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم "(21)

فقوله أنّه لا يسرق دليل على أنّ"السّر في المعنى " قبل اللّفظ و لكن الجاحظ لم ينتبه لهذا التّناقض.

المعنى و علاقته باللّـفظ:

عمل الجاحظ على البحث في قضيّة اللّفظ و المعنى من زوايا متعددة ، فهو يرى مثلا أنّ أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه ، و ذلك لا يتم برأيّه إلاّ من خلال المزاوجة بين المعنى الشّريف و اللّفظ البليغ يقول الجاحظ "و أحسن الكلام ما كان قليله يُغنيك عن كثيره ،

ومعناه في ظاهر لفظه ....فإذا كان المعنى شريفا و اللّفظ بليغا و كان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه ، و منزّها عن الاختلال مصوّنا عن التّكلف صنع في القلوب صنع الغيث في التّربة الكريمة."(22)

يرى الجاحظ أنّ المعاني هي في متناول جميع النّاس و أنّ الكلام لا يكتفي بالمعنى البليغ وحده حتى يكتسب صفة البلاغة و إنّما هو محتاج إلى اللّفظ الفصيح و الأسلوب القويّ المحكم بكل عناصره حتى يكون له تأثيره القويّ في أسماع النّاس و في هذا الشأن يقول " و المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ و العربيّ و البدويّ و القرويّ و المدنيّ و إنّما الشأن في إقامة الوزن ، و تخيّر اللّفظ و سهولة المخرج و كثرة الماء، وفي صحة الطبع و جودة السّبك ، فإنّما الشّعر صناعة و ضرب من النّسج وجنس من التّصوير."(23)

فالمعاني كما يرى الجاحظ يعرفها العرب و العجم و يعرفها ابن الصحراء البدوي و ساكن القرى و ليس لذلك قيمة إن لم يضع الإنسان المعاني في ألفاضها المناسبة لها، و لكن أرى أن الجاحظ لا يقصد أن المعنى لا قيمة له إطلاقا و ليس هو ضروريا و إنّما الفضل للألفاظ الضخمة الجوفاء و العبرة في الأسجاع المتكلفة المتواليّة الّتي قد تبدل المعنى و لا تعبر عنه و تطيح به.(24)

و الجاحظ يَقصد أو يفترض أنّ النّاس تتفاضل في معانيها بما تلبسها من ألفاظ، فالكاتب يفضل الكاتب و إن تشابها في المعنى الواحد ، بالأسلوب و باختياره ألفاظه و قدرته على الإجادة أكثر من غيره أمّا إذا قصد الى أن المعنى لا قيمة له و أنّ الفضل كل الفضل للّفظ فلا يوافق ،و يرى أنّ ألفاظ الشّاعر أو الأديب تحمي معانيه ، و هو يرى أنّ لكل شاعر أو أديب ألفاظه الخاصّة به ، فالأديب الّذي له أسلوب معيّن و ألفاظ خاصّة يستعملها و تتردد على لسانه وعلى قلمه و تتردد في أساليبه و في كتبه و في رسائله و يسهل علينا معرفتها إذا اقتطع أديب أخر سطورا من أدب ذلك الأديب أو بيتا من الشّعر فضمنها نثره أو شعره ، و يعتبر الجاحظ ذلك ميزة من ميزات التّفضيل كما قلنا بين المعنى و اللّفظ و لكن الغبن يكون أكثر إذا ما سرق الأديب لمعنى و إنّ سرقة اللّفظ أهون لأنّها تنكشف أمّا سرقة المعنى فإنّه لا يمكننا معرفتها أبدا.(25)

يقول الجاحظ" ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام و في معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلاّ و كل من جاء من الشّعراء من بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدّعيه بأسره فإنّه لا يدع أنْ يستعين بالمعنى و يجعل

نفسه شريكا فيه كالمعنى الّذي تنازعه الشّعراء فتختلف ألفاظهم و أعاريض أشعارهم و لا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعلّه يجحد أنّه سمع بذاك المعنى قط و قال أنّه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأوّل هذا إذا قرعوه به"(26) وليس معنى هذا أنّ نظرة الجاحظ و أقوال بشر بن المعتمر في البيان و التّبيين في اللّفظ ، هما اللّذان سيطرا على إفهام البلاغيين في عصر الجاحظ بل هناك من يقول غير هذا ، و يرى غير هذا الرّأي، فمنهم من كان يرى أنّ الألفاظ تبع للمعنى و أنّ اللّفظ يجب أن يساوي المعنى لا يزيد عليه فيضيع المعنى فيه و لا يقصر اللّفظ عن المعنى فيبدوا غير متناسق و لا متناسب ، و إنّما الشأن كل الشأن أن يساوي اللّفظ المعنى و يساوي المعنى اللّفظ(27)، قال " من علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا و تلك الحالة وفقا و يكون الاسم له لا فاضلا و لا مفضولا ولا مقصرا و لا مشتركا ولا مضمنا و يكون في ذلك ذاكرا لما عقد عليه أوّل كلامه ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، و يكون لفظه مونقا ... و مدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم و الحمل على أقدار منازلهم."(28)

النّظم عند الجاحظ:

وحديث الجاحظ عن اللّفظ و المعنى لا يقصد به اللّفظ المفرد وحده أو المعنى المفرد وحده وإشادته الكثيرة باللّفظ لا تعني أنّه يقدّمه على المعنى لأنّه في الوقت الّذي كان يشيد فيه بالقيمة اللّفظية كان يرى في المعاني رأي العتابي من أنّها " تحل من الألفاظ محل الرّوح من البدن" و على هذا فبلاغة الكلام عنده هي في المزاوجة أو الملائمة بين اللّفظ و المعنى و هذه المزاوجة أو الملائمة تتمثل في الأسلوب القويّ المحكم، أو في نظم الألفاظ الّتي يتطلبها المعنى على نحو يتيح لجوهر المعنى أنْ يبدوا كاملا ،واضحا، مؤثرا ، فنظم الكلام على هذا النّحو عنده هو الّذي يضفي عليه نعوت البلاغة و يمنحه قوّة التّأثير في النّفوس.(29)

وقد استعمل الجاحظ لفظ النّظم في كتاباته للدّلالة على أكثر من معنى فهو قد تحدث مرارًا عن النّظم بمعنى التّأليف و الإنشاء ، و جعل له أصنافا من القصيد و الرّجز و المزدوج والمجانس و الأسجاع و المنثور.كما ذكر "النّظم" في معرض حديثه عن إعجاز القرآن معلنًا أنّ إعجازه إنّما هو في "نظمه" ففي مرة يقول " إنّ اللّه صرف نفوس العرب عن المعارضة للقرآن ورفعها عن أوهامهم بعد أنّ تحدّاهم الرّسول بنظمه " وفي مرة ثانية يقول "إنّ الرّسول تحدى البلغاء و الخطباء و الشّعراء بنظمه و تأليفه " و في مرة ثالثة يقول " و في كتابنا المنزّل الّذي يدّلنا على أنّه صدق نظمُه البديعُ الّذي لا يقدر على مثله العباد."(30)

فيمـا يخص اللّفـظ:

يرى الجاحظ في أساليب الاستعمال الأدبي للكلمة و كيفيّة الصّياغة الجيّدة للكـــلام

1ــ أنّ النّاس تضع من الألفاظ ما يكفي لحاجيات حياتها ، و على هذا فإنّنا نطوّر لغتنا وتتطور معنا بالسّرعة الّتي يتطور بها مجتمعنا، و هذه حقيقة عقليّة واقعيّة لا يستطيع عاقل في الدّنيا إنكارها ، فنحن اليوم نستعمل كلمات مثل :محطة الفضاء، و القمر الصّناعي ،وعلوم الذّرة ، و القمر العابر للقارات ، و غيرها من مخترعات العصر الحديث و كلّها لم تكن موجودة زمن الجاحظ فلم توجد لعدم الحاجة إليها ما دامت العلوم لم تكن قد توصّلت إلى تلك المخترعات زمن الجاحظ ، بل و قد كان الشّعر و الأدب العباسي يفيض بوصف النّاقة و الجمل ....و نحن اليوم مشغولون بوصف الطائرة النّفاثة و العربة المريحة (31) ولهذا قال أبو عثمـان "و يؤكّد ما قلت فيه ما حدثني به طاهر الأسير ، فإنّه قال "وممّا يدّل على أنّ الرّوم أبخل الأمم أنّك لا تجد للوجود في لغتهم اسما، يقول إنّما يسمّى النّاس ما يحتاجون الى استعماله و مع الاستغناء يسقط التّكلف و قد زعم ناس أنّ ممّا يدل على غش الفرس أنّه ليس للنّصيحة في لغتهم اسما واحدا يجمع المعاني الّتي يقع عليها هنا الاسم..."(32) فالجاحظ هنا يرى أنّنا نستطيع أن نأخذ فكرة عن القوم من خلال معرفة لغتهم و هذا حق فإنّ لسان العرب مثلا يضم نسبة كبيرة من الكلمات الّتي تدل على ما يهتم به عرب الجاهليّة كالسّيف ، الفرس ، و النّاقة.

2ــ يرى أبو عثمان أنّنا نضطر أحيانا الى الاستعانة بالإشارة عندما نجد اللّفظ غير كاف للدّلالة على ما نريد من معنى "....وزعمت أنّ من اللّفظ دون الإشارة ، و دون معرفة السّبب والهيّئة ، دون إعارته و ركته و تحديده واحتيازه...."(33)

الجمـال في العلاقة بين اللّفظ و المعنى:

اللّفظ و المعنى ركنان أساسيان في جميع اللّغات و قد قسم" اللّفظ" في فقه اللّغة إلى ثلاثة أقسام:

1_ اللّفظ الواحد الموضوع وضعا أصليا لمعنى واحد " الحقيقة".

2_ اللّفظ الواحد الموضوع لأكثر من معنى " المشترك".

3_اللّفظ الواحد الموضوع وضعا أصليا لمعنى تبعيا "المجـاز".

ثم إنّ القدماء أدركوا أن هناك علاقة وصلة قائمة بين " اللّفظ" و " المعنى" الدّال عليه في أقسامه الثلاث و كل عالم تناول هذه المسألة من منظوره و حسب فهمه.

و الجاحظ يُعد من أوائل زعماء البيان و علمائه الّذين تناولوا هذه القضيّة"فآثر جانب اللّفظ أيّ يقصد الصّورة و ذلك عندما رأى أنّ رواة اللّغة يشايّعون المعنى، و يحفلون به و لم يلتفتوا الى جمال الصّياغة و حسن العبارة "(34)، ثم يقول الجاحظ " و لكل ضرب من الحديث ضرب من اللّفظ ، و لكل نوع من المعاني نوع من الأسماء فالسّخيف للسّخيف و الخفيف للخفيف ، و الجزل للجزل ، و الإفصاح في موضع الإفصاح ، و الكناية في موضع الكناية"(35) ،ويقول أيضا " و المعاني المفردة البائنة بصورها و جهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المشتركة ، أو الجهات الملّتبسة" (36)، فهذه النّصوص تبيّن لنا أقسام " اللّفظ" الثلاثة عند الجاحظ و كذلك محاولته الّتي لم تسبق في كشف العلاقة الوثيقة بين الألفاظ و بين معانيها ، و تتوالى هذه المحاولات عنده فيقول " ثم اعلم ـ حفظك الله ـ أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، و ممتدة إلى غير نهاية ،و أسماء المعاني مقصورة ، معدودة، و محصّلة محدودة. "(37)

فالجاحظ يوضّح هنا أنّ الحكم الجمالي في الألفاظ مغايّر للحكم الجمالي في المعاني لأنّ" الألفاظ رموز و الرّمز من صنع الإنسان أمّا المعاني و الأفكار و الخواطر و الأحاسيس فه أشياء معنويّة تتصل بالنّفس و الرّوح و العقل و هذه لا تعرف الحد و الحصر و هي ينابيع لا تنضب و لا تغور."(38)

إنّ علاقة اللّفظ بالمعنى علاقة معقدة لاتّصالها بالعقل و الوجدان معا و الفصّل بينهما ليس من السّهولة بمكان مما جعل الجاحظ يمثل لهما بالجسد و الرّوح المتلازمين في قوله "و الأسماء في معنى الأبدان و المعاني في معنى الأرواح ، اللّفظ للمعنى بدن ، و المعنى للّفظ روح لو أعطاه ـ أي الله عز و جل للإنسان ـ الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئا جامدًا لا حركة له،و شيئا لا حس فيه و شيئا لا منفعة عنده"(39)، فيفهم من هذا الشّعور و الجمال و الحركة شيئ كامن في المعاني ، لكن هذه المعاني يضل الإحساس بجمالها و الشّعور بها كامنا و إن ظهر المعنى ـ تجد من الألفاظ ما يناسبها ، و يقول الجاحظ "و مدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ ، و الحقائق لا العبارات فكم من دارس كتابا خرج غفلا كما دخل ، وكم من

متفهم لم يفهم"(40)، أيّ الجاحظ يبيّن من خلال ما سبق إلى أنّ التّأمل في معاني البلغاء موصول بالتّأمل في ألفاظهم ، و أنّ النّفاذ إلى باطن المعنى و الإحساس به و بنية قائله يسلم الى الإحساس بجمال " لفظ" و فنيّته الموافقة لبنائه الفني .

أصناف الدّلالات عند الجاحـظ:

يرى الجاحظ أنّ هذه الدّلالات هي (اللّفظ ،الإشارة ،العقد ، ثم الخط ،ثم النِّصبة)(41).
حيث يقول "و لكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صور صاحبتها ، و حلية مخالفة لحلية أختها ، وهي الّتي تكشف لك أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائق في التّفسير ، وعن أجناسها ، و أقدارها و عن خاصّها و عامّها و عن طبقاتها في السّار و الضّار ، وعمّا يكون منها لغوا بهرجا و ساقطا مطّرحًا"(42).
فكل الدّلالات المذكورة سابقا لها أهميتها و قيمتها في الجمال و أنّ كل دلالة لها علاقة بجمال أختها.

1ـ اللّفـظ : يعتبر الجاحظ أنّ اللّفظ هو أصلا اشتقت منه وسائل البيان الأخرى ، و معناه أنّ الجاحظ يجعل للغة متميّزا من مجموع وسائل التّواصل الخمس الّتي حددها إذ أنّه يعتبرها أكثر نفعا من غيرها و أنجح بيانا .(43) و يوضح الجاحظ بقوله أيضا" أعجب الألفاظ عندك ما رقّ و عذب و خف و سهل ، وكان موقوفا على معناه و مقصورا عليه دون سواه ، لا فاضل و لا مقصر و لا مشترك و لا مستغلق ، وقد جمع خصال البلاغة و استوفى خلاله المعرفة فإذا كان الكلام على هذه الصّفة، و أُلّف على هذه الشريطة ، لم يكن اللّفظ أسرع الى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السّامع كالقائل ، و المتعلّم كالمعلّم".(44) فجمال اللّفظ في شكله و مضمونه و وظيفته و بمعنى آخر تكون اللّفظة سهلة و خفيفة وعذبة و لا يعرف هذا إلاّ بالتّذوق و الإحساس أمّا مضمون " اللّفظ" فهو دلالته للاسم الّذي وضع له أو أريد به حيث يقول " و لا يكون اللّفظ اسمًا إلاّ و هو مضمن بمعنى ...و لا يكون اسم إلا و له معنى "(45).
و قد فرّق الجاحظ في أثناء حديثه عن البيان بين نوعين منه : البيان العادي الّذي هو بالمعنى اللّغوي للكلمة و الّذي يعني الإفهام و التّعبير و إيصال الحاجة ، و البيان الفني الأدبي الّذي لا ينبغي أن يطلق إلا على القول الجميل و التّعبير الحسن الممتاز.(46)
فالجاحظ كان لا يرى وصف الألفاظ بالقبح أو الحسن لذاتها على وجه الإطلاق بل لا بد من مشاكلتها و ملاءمتها معناها ، فقد يكون اللّفظ ملائما لمعناه فلا يقوم غيره مقامه.(47)

2 ــ الإشــارة: هذه هي الدّلالة الّتي قد يتوسل بها النّاس لقضاء مآربهم و تتميّز بشيء من الخفاء لأنّه لا حظ للسمع فيها ، فهي تعتمد على حركة صاحبها و نظر المتلقي لها، و يقول

الجاحظ في مفهومها "فأمّا الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب ، و كسر الأجفان و ليّ الشفاه و تحريك الأعناق ، و قبض جلدة الوجه ، و أبعدها أن تلوى على مقطع جبل ، اتجاه عين النّاظر ، ثم ينقطع عملها و يدرس أثرها ، و يموت ذكرها"(48)، فهذه الإشارة لها أهميّة نفعيّة لها علاقة بزمنها و من يشاهدها من المتلّقين تؤدي الى توضيح المعنى و تقريبه من ذهن المتلقي ، فلها أهميّة كبيرة في التّخاطب دون استعمال الألفاظ أي أن " هذه الإشارة الّتي يتحدث عنها الجاحظ هي ما يمكن أنْ نسميه الحركة المساعدة الّتي يقوم بها المتكلّم كي يبلغ أقصى حد ممكن في حال تفكيره أو الشّاعر في حال عاطفته و أحاسيسه"،(49) و يقول الجاحظ أيضا " و من حق المتكلّمين أنْ يُشيروا بأيديهم و بأعناقهم و حواجبهم ، فإذا أشاروا بالعصي فكأنهم قد و صلو بأيديهم أيديا أخر"، (50) أيّ أنّ الكلام قد يكون جميلا ويخلو من الحركات الفنيّة قد تنقص قيمته الجماليّة ، في حين بلوغ الكلام الجميل الّذي تتخلله هذه الحركات غاية الإبداع ، فحركة واحدة يتسع أفق الخيال و بثانية تتأجج العاطفة ، فالإشارة عند الجاحظ إمّا أن تكون قائمة بذاتها و متفقا على مدلولها و مفهومها بين " المتلقي " و "الملقى" فالإشارة بالرّأس و الحاجب و ما أشبه ذلك،و إمّا أن تكون مساندة للفظ ومعاونة له.

3 ـ العقـد: و هذه الدّلالة الثالثة من الدّلالات البيانيّة الّتي ذكرها " الجاحظ" و قد عرّفها بأنّها "الحساب دون اللّفظ و المعنى "(51)، و الّذي يبدو من كلام الجاحظ حول العقد " أنّ المقصود له ليست العمليات الحسابيّة بالأرقام ملفوظة أو مكتوبة، و إنّما هو ضرب من الحساب "(52)، أي أنّ الحساب له ثلاث وسائل تبيّنه و يتحقق بها و هي اللّفظ و الخط والعقد و هذا الأخير هو العقد " يتم بأصابع اليّدين و يدرك بالرّؤية و اللّمس ، أي أنّ جهازه الإدراكي يختلف عن جهاز إدراك الإشارة فيصّح تبعا لهذا أن نعتبر العقد وسيلة بيانيّة تتجه نحو الرّائي من بني البشر، أيّ أنّه يشترك فيها البصير و الأعمى."(53)

4 ـ الخـط: يعتبر الخط هو الدّلالة البيانيّة الرّابعة عند الجاحظ حيث يقول " و هو هذه الكتابة اليّدويّة المعروفة الّتي أحتال بها الإنسان للتّغلب على عجز لغة الكلام ...و حتى يتحرّر من ربقة الحاضر ليتم التّواصل بين الأفراد و المجموعات عبر الماضي و الحاضر و المستقبل بشكل أكثر غزارة و اتّساعا و تنوعًا ، ممّا لا تتيحه لهم عمليّة الكلام."(54)

فالجاحظ أوضح قيمة الخط على النّاحيّة النّفعيّة من تخليدا لمآثر و حضارات الأمم ، وإدارة شؤون الدّولة الدّاخليّة، و الخارجيّة ، و عموم أثر الكتابة لشمولها بالمعرفة للحاضر و الغائب و ما إلى ذلك من منافع جمّة فجمال الخط في صورته له انطباع على نفسيّة القارئ ، فالنّاظر للخط و كيفية رسم الحروف بطريقة تدخل الإحساس بالرّاحة و النّشوة و التّهيؤ بعد تأمّله

لاستقبال المعاني الّتي استخدم وسيلة في إظهارها ، و لا يخفى ما في هذا الصّنيع من تعظيم للبيان و رغبة التّبيّن.(55)

5 ـ النّصبة: هي " الحال النّاطقة بغير اللّفظ و المشيرة بغير اليّد.... و متى دلّ الشيئ على معنى فقد أخبر عنه و إن كان صامتا و أشار إليّه و إن كان ساكنا "(56)، فالنّصبة هي أقوى الدّلالات اتّصالا و التّحاما بالأحاسيس و المشاعر فهي تعتمد على التّأمل العميق مع إعمال الخيال في محاولة تجسيد هذا الجامد و استنطاق لذلك نرى المتأمّل الجمالي لموضوع الجسم (57)، و نصبته عندما ينظر بقلبه و يُحلّق في الآفاق يجعل الجماد الأبكم الأخرس مشاركا في البيان للإنسان الحيّ النّاطق، ومن خلال ما سبق يمكن القول أنّ الدّلالات الخمس أنّها عامّة لجميع النّاس و جميع طبقات المجتمع يتوسلون بها للكشف عن مكنون صدورهم.

الخاتمة: ما يمكن أنْ نخلص إليّه هو أنّ الجاحظ ناقش مسألة الشّكل و المضمون واللّفظ و المعنى وهي دراسة لا زالت كلّ الدّراسات اللّغويّة و الصّوتيّة المعاصرة في أدبنا العربي والآداب المعاصرة مقصّرة عنها ، ونحن بحاجة ماسّة إلى تدريس رأي الجاحظ في هذه النّقطة لطلبة الآداب في جامعاتنا و مدارسنا الثانويّة لنّضع بين أيديهم مفتاح الحل لمشكلة التّعبير الأدبي فهي تُغني عن استظهار قواعد البلاغة الجافّة الّتي جففها انعدام الذوق الفني لدى المتأخرين من علماء البلاغة حتى باتت حصة البلاغة شبحا يُخيف بدلا من الإقبال عليها كمادة مُرشدة للمتأدب تفتح أمامه مجال القول و تسهل له طرق التّعبير الجميل.(58)

الهـــــــوامش:

(1) طه احمد إبراهيم.تاريخ النّقد الادبي عند العرب.دار القلم .بيروت .لبنان . ص 110.111

(2)محمّد كرد علي ـ عمرو بن بحر الجاحظ .دار المعارف سوسة . تونس .1991.ص16.

(3) المرجع نفسه .ص17.

(4) داود سلّوم .النقد المنهجي عند الجاحظ.مكتبة النهضة العربية .بيروت . لبنان .1986.0ص94.

(5) محمّد كرد على عمرو بن بحر الجاحظ .مرجع سابق.ص35.

(6) قصّي الحسين. النّقد الادبي عند العرب .المؤسسة الحديثة للكتاب .طرابلس.لبنان .ط1.2003.ص307.

(7) المرجع نفسه ص308.

(8) الجاحظ . الحيوان .تحقيق عبد السّلام هارون .دار إحياء التّراث العربي .بيروت.المجمع العلّمي العربي الإسلامي .بيروت . لبنان .ج1. ص282.

(9) الجاحظ .البيان و التّبيين .تحقيق عبد السّلام هارون .القاهرة.1961.ج3.ص39.

(10) قصي الحسين . مرجع سابق .ص212.

(11) أبو العباس المبرد .الكامل .تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة .1956.ص57.

(12)إحسان عباس .تاريخ النّقد الادبي .دار الثقافة .بيروت . لبنان. ط3ط.1981.ص94.95.

(13) قصّي الحسين .مرجع سابق . ص314.

(14) الجاحظ .البيان و التّبيين ج1.ص76.

(15) المصدر نفسه .ج11.ص86.

(16) الجاحظ . الحيوان . ج3 . ص53.

(17) قصّي الحسين . النّقد الادبي عند العرب .مرجع سابق ص315.

(18) إحسان عباس . مرجع سابق .ص99.

(19) العسكري . الصّناعتين .تحقيق البجاوي .القاهرة .1902 ص 58.59.

(20) الحيوان ج1. ص 75.

(21) الحيوان .ج 3. ص 312.311

(22) الجاحظ .البيان و التّبيين .ج1.ص83.

(23) المصدر نفسه .ج 3.ص131.

(24) داود سلوم .النّقد المنهجي عند الجاحظ .ص99.

(25) المرجع نفسه .ص 100.

(26) الجاحظ .البيان و التّبيين .ج1 .ص127.

(27) داود سلّوم مرجع سابق .ص100.

(28) البيان و التّبيين.الجاحظ ج1 . ص91.

(29) عبد العزيز عتيق .تاريخ النّقد الادبي. دار النّهضة العربيّة .بيروت .لبنان .ط1986.4.ص328.

(30) الجاحظ. الحيوان .ج4 .ص90.

(31) محمد بن عبد الغني المصري.نظريّة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النّقد الادبي .دار حدلاوي .عمان . الأردن .ط1 .1987 .ص82.

(32) الجاحظ .البخلاء .تحقيق طه الحاجري .ص192.195.

(33) ينظر رسائل الجاحظ بهامش الكامل للمبرد.مطبعة السّنة المحمّدية 1323ه . حجج النّبوة . ص131.

(34) الدّكتور الصّاوي .النّقد التّحليلي عند عبد القاهر الجرجاني "دراسة مقارنة" ط2 .1982 .ص116.

(35) الحيوان . ج3 .ص39.

(36) الحيوان .ج3 .ص7.8.

(37) البيان و التّبيين.تحقيق عبد السّلام محمّد هارون .دار الجيل .بيروت 1990.ج1 .ص76.

(38) طه مصطفى أبو كريشة، أصول النّقد الادبي .ص254.

(39) رسائل الجاحظ.تحقيق محمّد هارون .دار الجيل .بيروت .ط1 .1991.ج4.ص262.

(40) الحيوان. تحقيق عبد السّلام محمّد هارون .دار إحياء التّراث العربي .بيروت.المجمع العلّمي العربي الإسلامي .لبنان.ج5.ص542.

(41) البيان و التّبيين .ج1 .ص76.

(42) المصدر نفسه ص 76

(43) ادريس بلمليح. الرّؤية البيانيّة عند الجاحظ.دار الثّقافة.الدّار البيضاء. المغرب .ط1 .1984.ص134.

(44) فوزي عطوي .رسالة التّربيع و التّدوير.ص25و25 وكذلك رسائل الجاحظ ص23و24.

(45) رسائل الجاحظ . ج3 .ص117.

(46) وليد قصّاب . التّراث النقدي و البلاغي للمعتزلة.دار الثقافة.الدّوحة .1985.ص395و396.

(47) الدّكتور الصّاوي .مرجع سابق.ص 119.

(48) الحيوان .ج1 .ص117.

(49)إدريس بلمليح.مرجع سابق .ص128 .

(50) البيان و التبيين .ج3 .ص117.

(51) ميشال عاصي .مفاهيم الجمّالية و النّقد في أدب الجاحظ .دار العلّم للملايين .بيروت.ط1ط.1974.ص.47

(52)إدريس بلميلح .مرجع سابق .ص131و132.

(53) المرجع نفسه .ص130.

(54) المرجع نفسه .ص131و132.

(55) الحيوان .الجاحظ .ج1.ص55و56.

(56) البيان و التّبيين .ج1.ص81و82.

(57) الحيوان .ج1.ص35.

(58) محمّد بن عبد الغني المصري .مرجع سابق .ص336.